موقف عبد القاهر الجرجاني من النظم القرآني

Muhammad Nur Afiq Aiman Md. Noraffendie[1], Mohd Shahrizal Nasir[2]
[1,2]*Universiti Sultan Zainal Abidin*
[1]mnafiqaiman@gmail.com, [2]mohdshahrizal@unisza.edu.my

Abstract: This research deals with a study of ‘Abd al-Qāhir al-Jurjānī’s perspective on Qur’anic *Nazm*, which makes it a basis for understanding the beauty of the eloquence of the Holy Qur’an. The research has shown that ‘Abd al-Qāhir al-Jurjānī made a qualitative shift in his study of grammar, as he gave priority to meaning over words, and considered that grammar has an interconnected relationship between words and meanings that must be considered according to the rules of grammar, which achieves an impact on the soul of the listener. The nature of the research necessitated the use of the descriptive analytical method by collecting and analyzing data from primary sources such as *Dalāʾil al-Iʿjāz* and *al-Risālah al-Shāfiyyah* comparing ‘Abd al-Qāhir al-Jurjānī’s vision with the some of previous scholars’ opinions who contributed to developing this idea. The research also discussed ‘Abd al-Qāhir al-Jurjānī’s criticism of the *Ṣarfah* theory, which denies *Nazm* as an aspect of the Qur’anic miracle. The findings underscore that ‘Abd al-Qāhir al-Jurjānī raised *Nazm* to a new level, that the Holy Qur’an is miraculous with its *Nazm* due to the strong correspondence between meanings, words, and grammar, which constitutes a unique *Nazm* that humans can never match. The research results highlight ‘Abd al-Qāhir al-Jurjānī’s contribution in employing grammar and rhetoric to understand the aesthetic aspects of *Nazm*, which enriches rhetorical and interpretive studies in Islamic heritage.

Keywords: ‘Abd al-Qāhir al-Jurjānī; *Nazm*; Rhetoric; Science of meanings; Qurʾānic inimitability

مقدمة

اتفق العلماء على أن القرآن الكريم هو أعظم النصوص المنزلة عرفتها البشرية، وهو مصدر بياني وإعجازي الذي تحدى به الله سبحانه وتعالى العرب فصاحة وبلاغة. فأكد الله سبحانه في كتابه العزيز: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.[1] وقد حظيت دراسة بلاغة القرآن الكريم باهتمام كبير من قبل العلماء البارزين على مر العصور الذين يحاولون السعي إلى كشف سر إعجازه اللغوي. ومن بين أبرز هؤلاء العلماء هو عبد القاهر الجرجاني الذي اشتهر بتقديم فكرته عن "النظم". كما قد أشار إبراهيم شادي أنه جعل

[1] سورة الإسراء، الآية ٨٨.

النظم كمنهج قيم لتفسير الإعجاز القرآني مبتعدا عن المفاهيم التقليدية التي كانت مقتصرة على الجوانب المادية الحسية.[٢]

وقد سبقت الدراسات من الأطروحات والرسائل الأكاديمية ولفت الاهتمام بين الباحثين حول دراسة فكرة النظم. ويلحظ البحث دراسة اتجاهات في دراسة النظم عند أعلام البلاغيين لشهيدا حنيم في الماجستير التي تعتمد على المنهج الوصفي الاستقرائي.[٣] فتسعى الدراسة إلى ضرب بعض الأعلام الممثلين بإجراء الدراسة وساهموا في تقديم الآراء حول قضية النظم. وحصيلة الأمر، هذه الدراسة نتجت بعرض لمحة سريعة عن هؤلاء العلماء مع اتجاهاتهم حول النظم مما ساعدت الباحثين اللاحقين الرجوع إليها بشأن هذه الفكرة. وأما الفرق بين دراستها وهذا البحث، فيتركز تعمقه حول ما يهم بشأن عبد القاهر الجرجاني دون أعلام أخرى لتباين فكره عنهم في عرض هذه الفكرة. ثم يلحظ البحث إلى دراسة جرماني الزهرة عن الأصول الفكرية لنظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني: دراسة نظرية،[٤] ويعتقد البحث أن دراستها لها علاقة مباشرة بهذا البحث إذ كانت تدرس وتتعمق في الدراسة عن عبد القاهر الجرجاني وفكرته التي تناولت النظم إلا أنها لم تتطرق في إسهامته لإثبات النظم بشأنه معجزا. وقد سارت على المنهج الوصفي التحليلي الذي يكون على أساس جمع المعلومات عن فكرة النظم وعبد القاهر الجرجاني ثم تقوم بوصفها نظريا. ومع ذلك، تكمل هذه الدراسة بإجراء التحليل فيما توصلت إليها المعلومات.

إن مبعث الاهتمام بهذه القضية هو أن عبد القاهر الجرجاني بدا ينحو منحى آخر في موقفه حول النظم القرآني الذي لم يكن في موضع اتفاق بين هؤلاء العلماء القدامى مثل الجاحظ، والباقلاني، والخطابي وما إلى ذلك. وهذا التباين الفكري في الموقف قد أثارت التساؤلات مدى تأثير هذه الفكرة على الدراسات البلاغية والتفسيرية. وهنا يبرز أغلب الهدف الرئيسي لهذا البحث تسليط الضوء على موقف عبد القاهر الجرجاني من النظم القرآني وكما يسعى هذا البحث إلى التأكد على دور النظم في بيان إعجاز القرآن. ومن هنا، يبدو إسهام هذا البحث إلى إبراز مكانة التراث البلاغي والإسلامي وتوظيفه في الدراسات القرآنية.

---

[٢] شادي، محمد إبراهيم، شرح دلائل الإعجاز، عالم الثقافة: القاهرة، ط٢، ٢٠٢٢م، ج١ ص٢٨.

[٣] شهيدا حنيم، اتجاهات في دراسة النظم القرآني عند بعض أعلام البلاغيين، ماليزيا: الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، ٢٠١٠م.

[٤] جرماني الزهرة. الأصول الفكرية لنظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني: دراسة نظرية. الجزائر: جامعة دكتور مولاي طاهر، ٢٠٢١م.

منهجية البحث

للوصول على النتائج المستهدفة، تتمتع منهجية هذا البحث بالمنهج الوصفي التحليلي. يبدأ البحث بجمع المعلومات عما تتعلق بفكرة النظم، والبلاغة، مع تسليط الضوء على رؤية عبد القاهر الجرجاني. وكما أن البحث يقوم بوصف الدقيق لما حوته فكرة عند عبد القاهر الجرجاني وموقفه فيها بالإضافة بعض الاختلافات بينه وأبرز السابقين في تناول هذه الفكرة. وإضافة إلى ذلك، من أجل التحقيق والحصول على النتائج النهائية، يسعى البحث إلى إجراء المقارنة بين موقف هؤلاء الأعلام البارزين والتحليل على الأسس التي قام عليها مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني. ومن هنا، يتضح نقاط القوة في موقف عبد القاهر الجرجاني بالمقارنة مع آراء هؤلاء في النظم القرآني.

البحث والمناقشة

النظم

من المعروف أن تعريف الشيء هو مفتاح الدخول إليه، فيفتتح البحث بالتعرف على المصطلح المحوري الذي يتركز عليه البحث وهو "النظم". فالنظم في اللغة يعني التأليف والجمع والترتيب، يقال: نظمه ينظمه نظماً ونظاماً، ونظّمه فانتظم، وتنظّم، كما يُقال: نظمتُ اللؤلؤ أي جمعتُه في السلك. ويُستخدم "النظم" للإشارة إلى ضم الأشياء بعضها إلى بعض لتكوين وحدة متكاملة، ومنه نظمتُ الشعر أو نظمتُ الكلام.[٥] يتضح من هذا التعريف أن الكلمة بدأت بمعناها الحسي والمادي قبل أن تتطور إلى معنى يشير إلى الترتيب والتنظيم بصفة عامة.

أما النظم الذي يراد به البحث هنا فهو ما يتخذ مفهوما بلاغيا عند عبد القاهر الجرجاني أشاره في تأليفه وهو فن ترتيب الكلمات وتعليقها بسبب من بعض الذي أنتج من عمل فكري واضح، وكيف يمكن لهذا الترتيب أن يؤثر في المعنى ويترك أثرا عميقا في نفس المخاطب.[٦]

[٥] ابن منظور، لسان العرب، بيروت: دار صادر، ط٣، ١٩٩٤م، ج١٢ ص٥٧٨، مادة نظم.

[٦] الجرجاني، دلائل الإعجاز: تحقيق محمود شاكر، القاهرة: مكتبة المدني، ١٩٩٢م، ج١ ص٤٥.

النظم عند عبد القاهر الجرجاني

حاول البحث الاستفادة من الدراسات السابقة التي تناولت ودرست فكرة النظم، ويلحظ أن هذه الفكرة ليست وليدة في عصر عبد القاهر الجرجاني ولا من منبع فكره وحده. وإنما هي فكرة فهمت ونوقشت منذ العصر الجاهلي إلا أن عبد القاهر الجرجاني أضاف على هذه الفكرة بعدا اصطلاحيا بحيث ربطها بمعاني النحو.[٧] وقد أكد عبد القاهر الجرجاني أن النظم لا يقصد به الألفاظ المعجمية الجامدة بنفسها نظما، بل هي نتيجة تعليق الكلم بعضها ببعض، ويبني بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك.[٨] وأكد هذا أحمد حسن صبرة، فإن الجرجاني لا يقصد بالمعاني تلك المعاني المعجمية أو العامة، بل المعاني النحوية التي تنشأ من العلاقة بين الكلمات في سياق الجملة.[٩] ومن هنا، يستفيد من أساس مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني لا بد أن هناك تعليق بين الكلمة الأولى بالثانية، والثانية بالثالثة وما إلى ذلك. فمنه ينبت نظما الذي يمكن أن يعطي المعنى، وليس نظما بمجرد الألفاظ المعجمية الجامدة خالية من روح المعاني.

وإن الناظر المتأمل إلى أعمال عبد القاهر الجرجاني في النحو بجانب علم البلاغة، يبدو أنه كان أكثر اهتماما بهذا العلم حتى برزت عنده شروحات متكاثرة فيه وتعد من شروحات مبسطة لأقوال العلماء في هذا العلم. فيلحظ البحث إلى ما قال إبراهيم شادي في مقدمة شرحه لدلائل الإعجاز، يصرح بقلمه أن عبد القاهر الجرجاني استفاد من كلام النحويين وعلى رأسهم سيبويه، وأبرز ما لوحظ في كتابه هو تطبيقاته للنظم والبحث لمحاسنه ومزاياه.[١٠] وإضافة إلى ذلك، وقد رد على من تزهد في النحو وصغر في أمر هذا العلم، وذلك الأمر والفعل أشبه بأن يكون صدا عن كتاب الله ومعرفة معانيه.[١١] ويصوغ البحث القول هنا، أن عبد القاهر الجرجاني بجانب تطرقه إلى مفهوم اصطلاحي للنظم، كان يضمن دراسته هذه في البحث عن مزايا النظم بمراعاة قواعد النحو على الإطلاق. ويمكن القول أيضا أن تعمقه في هذا العلم، قد فتح له فسيح المجال لتقديم الجديد في مقاربة بين علمين النحو والبلاغة في آن واحد.

---

[٧] المرجع نفسه، ص٢٥١.

[٨] المرجع نفسه، ص٤٥.

[٩] صبره، أحمد حسن، التفكير الاستعاري، دمنهور: مكتبة الوادي، ٢٠٠٢، ص ١٠٤.

[١٠] شادي، محمد إبراهيم، شرح دلائل الإعجاز، ج١ ص٢٨.

[١١] الجرجاني، دلائل الإعجاز: تحقيق محمود شاكر، ج١ ص٢٩.

ومن اللافت للنظر عن أعلام البلاغيين السابقين الذين ساهموا في دراسة وتطوير فكرة النظم، لوحظ في أكثر اتجاهاتهم تتوجه إلى بدائع الألفاظ وحسنها. ويبدو هذا واضحا فيما يقوله الجاحظ الذي يشترط في اللفظة المفردة أن تكون كريمة وسلامة عن الفضول وبريئة عن التعقيدات، ويبدو في عملية تنظيم الألفاظ أو الكلمات في كتابة أو كلام أو فنية لا بد من "التلاحم والسبك والإفراغ" من أجل تحقيق الأهداف المبتغاة إيصالها.[١٢] وبالإضافة إلى ذلك، يلحظ البحث إلى ما صرح به القاضي عبد الجبار عندما يعرف عن الفصاحة، ويبدو كلامه هو ما استلهمه عبد القاهر الجرجاني في توسيع فكرته للنظم، يقول: "إنّ الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلمات، وإنّما تظهر بالضّم على طريقة مخصوصة".[١٣]

بناء على ما تقدم من أقوال المنتصرين للألفاظ، فإن عبد القاهر الجرجاني قد سار على منهج آخر في تناوله للنظم إذ يتوسط بين المنهجين إلا أنه جعل المعنى مقدم على كل شيء وأما الألفاظ فهي أداة لإيصال المعنى المراد. وهذا يتناسب مع شخصية عبد القاهر الجرجاني التي لف إليه انتباه البحث في رده على الناصرين بالألفاظ، يقول: "قد ترى أحدهم يعتبر حال السامع، فإذا رأى المعاني لا تترتّب في نفسه إلّا بترتّب الألفاظ في سمعه، ظنّ عند ذلك أن المعاني تبع للألفاظ، وأن التّرتّب فيها مكتسب من الألفاظ، ومن ترتّبها في نطق المتكلم".[١٤] ويستفيد البحث بأنه دليل واضح على أن الألفاظ تابعة للمعاني التي تستنتج من الفكر، فهي أداة لإيصال المعنى الذي يبتغيه المتكلم. وبعبارة أخرى أن المعنى هو اللب الأساسي في إجراء التواصل الفعال، وأما الألفاظ فهي وسيلة.

ومن هنا، يتضح أن النظم عند الجرجاني ليس مجرد ترتيب للألفاظ، بل هو عملية تعلّق الكلمات ببعضها في إطار نحوي ومعنوي، مما يجعلها قادرة على إيصال المعاني بوضوح.

موقف عبد القاهر الجرجاني من النظم القرآني

سبق القول عن النظم عند عبد القاهر الجرجاني عموما، ويتلخص أن عبد القاهر الجرجاني قد نحى المنحى الجديد حيث يتوسط في تناول مفهوم ومعنى النظم إلا أنه جعل معنى مقدم على الألفاظ في كل حال. غني عن البيان أن القرآن الكريم هو أعظم نصوص عرفته البشرية، وهو كلام

[١٢] الجاحظ، البيان والتبيين، بيروت: دار ومكتبة الهلال، ١٩٩٧م، ج٢ ص٧.

[١٣] القاضي عبد الجبار، المغنى في أبواب التوحيد العدل، لبنان: دار الكتب العلمية، ٢٠١١م، ج١٦ ص١٩٩.

[١٤] الجرجاني، دلائل الإعجاز: تحقيق محمود شاكر، ج١ ص٢٦٥.

الله سبحانه وتعالى المنزل على النبي -صلى الله عليه وسلم- متواترا عن جبريل عليه السلام. وقال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.[١٥] وبالإضافة إلى ذلك، لقد اختار الله سبحانه تعالى اللغة العربية بوصفها لغة فيها جمال لا يمكن وصفها محتفظا إلى يوم لا ظل إلا ظله، ضمانا من الله تعالى في الذكر الحكيم: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَوَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾.[١٦]

ومن خلال استقراء البحث لرسالة الماجستير التي أفادتها روضة، أن العرب هم رواد البيان وأرباب الفصاحة.[١٧] وأضاف ذلك رسلان عبد الرحمن وآخرون أن العرب هم أهل الفصاحة نطقا ولسانا.[١٨] والمتتبع لهذه الأقوال، يجد أنها هي الأسس التي أكدت على قيمة هذه اللغة دون اللغات الأخرى في العالم وتمزيها، وأن نزول القرآن الكريم يعتبر صدمة كبيرة على الأمة العربية، حيث فاقت فصاحته على فصاحتهم وأقوالهم المفتخرة شعرا ونثرا.

ومن المعهود، أن القرآن الكريم كلام الله المعجز من عدة الجوانب فصاحة وبلاغة وعلوما وما إلى ذلك حتى لم يكن بمقدور أحد أن يأتوا بمثله، لقول الله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.[١٩] فإن المناقشة حول إعجازه بدأت أن اشتعلت النار الحميمة عندما صرح أحد المتكلين يقال إبراهيم النظام -من المعتزلة- القول بالصرفة مع تلميذه الجاحظ إلا أن الفرق بينه، أن الجاحظ ما زال يفرق بين نظم القرآن وسائر كلام الناس لعدم قدرة البشر عليه، وأما النظام فرأى القدرة البشرية في الأمر.[٢٠] وإن المتأمل الناظر في هذه القضية، لم يكن هناك أي كتاب يوضع مخصصا ليتكلم عن "الإعجاز" قبل الجاحظ إلا أنه قد ألف "نظم القرآن"، ولكن -قدر الله وما شاء فعل- قد ضاع مع الأيام، ولعله أشار إلى إعجاز نظم القرآن على سائر الكلام البشري ويوضح أكثر وضوحا عما توصل إلينا اليوم عن قوله في "البيان والتبيين".

---

[١٥] سورة يوسف، الآية ٢.

[١٦] سورة الحجر، الآية ٩.

[١٧] عبد الكريم، روضة، إعجاز النظم القرآني في آيات التشريع: رسالة ماجستير، الأردن: الجامعة الأردنية، ٢٠٠٢م، ص٦.

[١٨] رسلان ومصطفى وآخرون، تاريخ بلاغة العرب وإعجاز القرآن وعلاقته بقضية النظم، ماليزيا: جامعة السلطان زين العابدين، ٢٠٢٣م، ص١٠٢.

[١٩] سورة الإسراء، الآية ٨٨.

[٢٠] محمد هرام، الإعجاز اللغوي والبلاغي في سورة آل عمران: دراسة نحوية أسلوبية، الجزائر: جامعة الجلفة، ٢٠١٧م، ص٨.

وذكرت روضة في رسالتها، بأن همم العلماء من أهل السنة والجماعة تحركت للبحث في وجوه إعجاز القرآن الكريم ويبحثون عن السر المكنون الذي أعجزه العرب البلغاء عن معارضته، وقد بذلوا جهودا عظيمة، وقدموا نظريات متعددة وتشعبت اتجاهاتهم في إعجاز القرآن.[٢١] وعلى الرغم من اختلاف زوايا النظر إلى وجوه الإعجاز، فإن اتجاهاتهم وآرائهم قد أفادت وفتحت مساحة واسعة للباحثين والمفكرين من بعدهم توسيع الفكرة من أجل الدفاع عن هذا الدين المطهر. ويمكن لف النظر إلى بعض العلماء الذين أفردوا في توآليفهم عن وجوه إعجاز القرآن الكريم ومنهم الخطابي "بيان إعجاز القرآن"، والرماني "النكت في إعجاز القرآن"، والإمام الباقلاني "إعجاز القرآن"، والعالم اللغوي البلاغي الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابيه "دلائل الإعجاز" و "الرسالة الشافية ".[٢٢]

ومن اللافت للنظر إلى رسالة الرماني، وكان من أوائل العلماء الذي تناول في النظم وربطه بالإعجاز في حوالي القرن الرابع الهجري. وأشهر ما يقول عن وجوه الإعجاز هو البلاغة الذي راح بتقسيمها إلى ثلاث طبقات: عليا، ودنيا، ووسطى. وهذه الطبقات الثلاث تتمثل طبقة فصاحة الكلام التي ترجع إلى النظم، والأهم من هذه، أنه بدأ يهتم من الجانب المعنوي إلا أن اللفظ ما زال في درجة الأول أهمية.[٢٣] وجاء الخطابي برسالته بيان في إعجاز القرآن بهدف الرد على الملحدين وبالأخص اللقائلين بالصرفة. يقول الخطابي: "إنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظما أحسن تأليفا وأشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه".[٢٤]

ويرى البحث إلى ما ألفه الباقلاني، ويقال إنه أول كتاب ألف في إعجاز القرآن مفصلا. والملاحظ، أن الباقلاني يرى أن الإعجاز يكمن في إبداع نظمه وإعجاب تأليفه ووصفه مما يخالف عن

[٢١] عبد الكريم، روضة، إعجاز النظم القرآني في آيات التشريع: رسالة ماجستير، الأردن: الجامعة الأردنية، ٢٠٠٢م، ص٧-٨.

[٢٢] إبراهيم، نصر الدين، وجوه الإعجاز في الخطاب الأسلوبي والمعرفي للقرآن الكريم، ماليزيا: عضو مجلس النشر العلمي الماليزي، ٢٠١١م، ص٦٠.

[٢٣] الرماني، النكت في إعجاز القرآن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، مصر: دار المعارف، ١٩٧٦م، ص٧٥.

[٢٤] الخطابي، بيان إعجاز القرآن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، مصر: دار المعارف، ١٩٧٦م، ص٢٧.

سائر كلام الناس أجمعين.[٢٥] وأضاف في إعجازه أن النظم لا يحكم على نفس حروفه وإنما هو في نظمها وإحكام رصفها.[٢٦] وهنا يستفيد البحث، أن عبد القاهر الجرجاني كان بمثابة رجل مكمل ومفحص لأقوال العلماء سابقيه إذ أنه يحاول ربط النقاط وتقريب المسافة حتى أن وصل إلى الوجه المتفق عليه. ويرى البحث مزية منهج التوسط لعبد القاهر الجرجاني حيث يستفيد من هؤلاء القدامى في تناول هذه الفكرة.

اختلف العلماء حول تقدم كتابة عبد القاهر الجرجاني لكلا الرسالة والدلائل، ومنهم من قال إن دلائل الإعجاز مقدم على الرسالة ومنهم من قال بالعكس. ومهما كان الأمر، يستفيد البحث من رسالته أنه خص تأليفه لإثبات إعجاز القرآن للعرب حين تحدوا إلى معارضته الذي يمكن لف النظر في فاتحة رسالته قائلا: "لكل نوع من المعنى نوعا من اللفظ هو به أخص وأولى، وضروبا من العبارة هو بتأديته أقوم، وهو فيه أجلى، ومأخذا إذا أخذ منه كان إلى الفهم أقرب، وبالقبول أخلق، وكان السمع له أوعى، والنفس إليه أميل. وإذا كان الشيء متعلقا بغيره، ومقيسا على ما سواه، كان من خير ما يستعان به على تقريبه من الأفهام، وتقريره في النفوس، أن يوضع له مثال يكشف عن جهة ويؤنس به، ويكون زمامًا عليه يمسكه على المتفهم له والطالب علمه".[٢٧]

ومن ضمن الرسالة الشافية في إعجاز القرآن، يستفيد البحث أن عبد القاهر الجرجاني اقتصر وجوه الإعجاز على وجه واحد فقط وهو فصاحة الكلام في النظم التي لا تظهر إلا في الألفاظ أو الكلمات المضمومة بعضها إلى بعض، لا في الكلمات المفردة الجامدة. وفي السياق نفسه يرى عبد القاهر الجرجاني أن المعنى لا بد أن يكون أولا في الرتبة، ثم يختار لهذا المعنى المراد إيصاله ألفاظا من أجل تيسير جذب الانتباه والتأثير على النفوس. وبعبارة أخرى، أن فضل اختيار المفردات المناسبة يجعل المعنى أسهل مفهوما وتأثيرا في النفوس. والملاحظ، أن هذا الرأي قد عزز العلاقة بين النظم والإعجاز لأنه من المحال أن يدرك الأمة البشرية في الكلام العادي شعرا ونثرا هذه المكانة العالية على سبيل الاطراد. وهنا يلزم أن يقال، إن دعوى الصرفة الذي تمسك بها النظام قد ثبت بطلانه وفساده.

[٢٥] الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، مصر: دار المعارف، ١٩٩٧م، ص١١٢.

[٢٦] الباقلاني، تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر، لبنان: مؤسسة الكتب الثقافية، ١٩٨٧م، ص١١٧.

[٢٧] الجرجاني، الرسالة الشافية في إعجاز القرآن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، مصر: دار المعارف، ١٩٩٧م، ص١١٢.

وفي إثبات عبد القاهر الجرجاني لإعجاز النظم القرآني، كان لا يكتفي بالنظر إلى عجز العرب في الإتيان بمثله، ولكن أكد على تعجيزهم في مزايا التي ظهرت في النظم.[٢٨] وبعبارة أخرى، أن النظم القرآني الذي أعجزه البشر هو الإتيان بمثل ما أتاه الله من أسرار ومعانيه الإضافية التي تتجدد من النظم. ويتبين هذا إذا لوحظ في نظمين قد اشتركا في معنى واحد، فإن أحدهما يتميز في نظمه بمزايا ومحاسن، كان ذلك دليلا على خصوصيته ذلك النظم وإعجازه. وتفسير ذلك مما مثل إبراهيم شادي شرحا لهذا الكلام، كان يأتي بالمقارنة بين كلام الله عز وجل: ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾، وقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيما رواه البخاري: "خذوا من العمل ما تطيقون؛ فإن الله تعالى لا يمل حتى تملوا".[٢٩] وكان البحث يستفيد أن التباين بين هذين النظمين واضح وإن كانا يشتركان في معنى واحد إلا أن نظم القرآن أكثر إيجازا وتركيزا دون تطويل.

ويضرب المثال من قوله تعالى الذي يتمثل من إعجاز نظم القرآن الكريم، ﴿إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ﴾،[٣٠] حيث قدم لفظ الجلالة المنصوب الذي كان من شأنه أن يكون مؤخرا عن الفاعل. وقد تحول المعنى إلى أشد تأثيرا حيث حصر خشية الله على من وهبهم الله من عباده العلم. وإن كان يجري على ترتيبه الأصلي لما اقتضى ذلك التأثير في نفس المخاطب. وهذا ما أشار إليه البحث فيما سبق وهو معاني النحو ومزايا النظم.

وقد اتفق جميع العلماء الذين ناقشوا حول النظم ما يجعله القرآن معجزا، فلا يمكن لأي أحد من المخلوقين أن يضاهي القرآن في التعبير لفظا ومعنى ويأتي بمثله فصاحة وبلاغة ولو اختلفوا طريقة عرضهم. وإضافة إلى ذلك، فإن هذه الآراء قد لزمت الرد المستمر على القائلين بالصرفة ويدعون الإعجاز ينحصر على الأمور المحصورة فحسب دون اشتماله في النظم. فإن الإعجاز في النظم يعتمد على التزامه بأنواع مختلفة من الروابط مثل النحو، والبلاغة، والفصاحة، وفروعها الأخرى.[٣١]

[٢٨] الجرجاني، دلائل الإعجاز: تحقيق محمود شاكر، ج١ ص٣٦.

[٢٩] شادي، محمد إبراهيم، شرح دلائل الإعجاز، ج١ ص١٣١.

[٣٠] سورة فاطر، الآية ٢٨.

[٣١] رسلان ومصطفى وعبد الواحد وبيومي ومحمد، تاريخ بلاغة العرب وإعجاز القرآن وعلاقته بقضية النظم، ماليزيا: جامعة السلطان زين العابدين، ٢٠٢٣م، ص١٠٤.

خلاصة

وخلاصة القول، كان يليق بعبد القاهر الجرجاني ثناء عليه بحيث يعتبر أحد العلماء البارزين في تناول أفكاره حول قضية النظم ونجاحه من فك الجمود الذي حاصر فكر سابقيه. ويلحظ البحث أن عبد القاهر الجرجاني يرى في النظم القرآني معجزا إذ يكشف وجود ترابط بين الألفاظ والمعاني مطردا مما يميز كلام جل جلاله عن سائر كلام البشر الضعفاء. وإضافة إلى ذلك، من إثبات عبد القاهر الجرجاني لإعجاز النظم القرآني أنه يظهر من خلال التناسق بين النحو، والبلاغة، والفصاحة الذي يجعل القرآن متفردا في تأثيره على نفس المخاطب. وفضلا عن ذلك، فإنه يرى عظمة النظم القرآني تكمن في الأسرار والمزايا التي لا يمكن من مقدور أحد إضاهته بما في ذلك تتجدد من خلال تأمل الدقيق للنصوص القرآنية. وبهذا، يتضح موقف عبد القاهر الجرجاني من النظم القرآني عن القدامى الذين يرون إعجازه يكمن في ظاهر الألفاظ من حسنها وبديعة أسلوبها. ويبدو للبحث أن هذه من الأسباب التي قد جعلت له مكانة خاصة في تقديم آرائه بشأن هذه القضية مما يتفوق على منهج سابقيه في هذه الدراسة.

قائمة المراجع

القرآن الكريم.

إبراهيم، نصر الدين. وجوه الإعجاز في الخطاب الأسلوبي والمعرفي للقرآن الكريم. ماليزيا: مطبعة الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، ٢٠١١م.

ابن منظور، جمال الدين. لسان العرب. بيروت: دار صادر، ١٤١٤هـ.

الباقلاني، القاضي أبو بكر. إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، مصر: دار المعارف، ١٩٩٧م، ص١١٢.

ـــــــــــــ. تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر. لبنان: مؤسسة الكتب الثقافية، ١٩٨٧م.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. البيان والتبيين. بيروت: دار ومكتبة الهلال، ١٩٩٧م.

الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن. دلائل الإعجاز: تحقيق محمود شاكر. القاهرة: مكتبة المدني، ١٩٩٢م.

ـــــــــــــ. الرسالة الشافية في إعجاز القرآن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام. مصر: دار المعارف، ١٩٩٧م.

جرماني الزهرة. الأصول الفكرية لنظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني: دراسة نظرية. الجزائر: جامعة دكتور مولاي طاهر، ٢٠٢١م.

الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم. بيان إعجاز القرآن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام. مصر: دار المعارف، ١٩٧٦م.

رسلان عبد الرحمن، مصطفى جيء عمر، عبد الواحد صالح، نشأت بيومي، ومحمد نور عبد الله. تاريخ بلاغة العرب وإعجاز القرآن وعلاقته بقضية النظم، ماليزيا: جامعة السلطان زين العابدين، ٢٠٢٣م.

الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى. النكت في إعجاز القرآن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، مصر: دار المعارف، ١٩٧٦م، ص٧٥.

شادي، محمد إبراهيم عبد العزيز. شرح دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني. عالم الثقافة: القاهرة، ط٢، ٢٠٢٢م.

صبره، أحمد حسن. التفكير الاستعاري. دمنهور: مكتبة الوادي، ٢٠٠٢م.

عبد الكريم، روضة. إعجاز النظم القرآني في آيات التشريع: رسالة ماجستير. الأردن: الجامعة الأردنية، ٢٠٠٢م.

القاضي أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار. المغنى في أبواب التوحيد العدل. لبنان: دار الكتب العلمية، ٢٠١١م.

محمد سوهاني، شهيدا حنيم. اتجاهات في دراسة النظم القرآني عند بعض أعلام البلاغيين. ماليزيا: الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، ٢٠١٠م.

هرام، محمد. الإعجاز اللغوي والبلاغي في سورة آل عمران: دراسة نحوية أسلوبية. الجزائر: جامعة الجلفة، ٢٠١٧م.